الإثنين 13 رجب 1430هـ - 06 يوليو 2009م

تحت رقابة الكولونيل

غسان شربل

في الطائرة التي ستقله اليوم الى موسكو ستتزاحم الأفكار والذكريات في رأس باراك اوباما. الخروج من الازمة المالية العالمية قد يكون اسهل من الخروج من الخراب الذي احدثه جورج بوش في العلاقات الدولية. شهوة توسيع حلف شمال الاطلسي ودعم الثورات الملونة أيقظا عقدة الحصار لدى روسيا. لم تساعد اميركا المنتصرة تلك الدولة الخارجة مهزومة من الركام السوفياتي. بعض الممارسات اوحى بالرغبة في تطويقها وإذلالها وفرض الازياء الاميركية عليها.

يجدر به ان يتذكر مسائل اخرى. لعبت اميركا دورا حاسما في إغراق «الجيش الاحمر» في المستنقع الافغاني. وها هي تطلب اليوم من روسيا ممرات جوية لنقل امداداتها العسكرية الى قواتها العالقة في المستنقع نفسه. ابتهجت اميركا بقدرة الوكيل الباكستاني على انتاج المجاهدين الافغان ثم طالبان وها هي اليوم تخشى على الترسانة النووية الباكستانية من بيت الله محسود.

يحتاج باراك اوباما الى روسيا. يحتاج اليها في افغانستان. وفي الازمة الكورية. وفي الملف النووي الايراني. وعملية السلام في الشرق الاوسط. ولخفض الترسانات النووية. ولتذكير الصين الصاعدة بأن اميركا تملك عناوين اخرى. ولطمأنة الجمهوريات التي خلعت العباءة السوفياتية وفرّت. وطمأنة الدول الاوروبية التي كانت تقيم في عهدة حلف وارسو. وليكون سلوكها مساعدا في معالجة الازمة المالية. ثم ان روسيا تتمدد بين قارتين وتنام على النفط والغاز والصواريخ القادرة على دفع العالم الى رماده.

لم تبخل روسيا على اميركا بالدعم حين اطلق اسامة بن لادن «غزوتي واشنطن ونيويورك». لم تكتف الامبراطورية الجريح بإسقاط نظام الملا عمر. حاولت اطلاق انقلاب مروع في الشرق الاوسط باقتلاعها نظام صدام حسين. فتحت ابواب الاطلسي لجيران الدب الروسي. صفقت للاوكرانيين والجورجيين كأنها تدفع روسيا الى عزلتها والنوم تحت الثلوج. فبركت مشروع الدرع الصاروخية وتذرّعت بالصواريخ الايرانية.

ثمة كولونيل في الـ «كيجيبي» كان يرسل تقاريره من المانيا الشرقية. رأى الجدار يتداعى. والامبراطورية تتوارى. رأى التفكك يحدق بالاتحاد الروسي نفسه. اتخذ قراره وكمن وتسلل. كان اسمه فلاديمير بوتين. شق طريقه الى الكرملين. وبالحزم والدهاء رمّم الانياب الروسية. ديموقراطية بألوان محلية. لجم الصحافة. روّض البارونات. طباخ ماهر. شعبية وانتخابات. ثم قرر احترام الدستور. ترك الكرملين في عهدة فلاديمير ميدفيديف واختار رئاسة الحكومة في انتظار موعد العودة الى سرير جوزيف ستالين.

افكار كثيرة تمر في رأس اوباما. روسيا ليست الدنمارك. انتخاباتها تعالج في مطبخ الكرملين. قضاؤها ينحني اذا عقد الحاكم حاجبيه. الصحافي يُقتل اذا ذهب بعيدا. والمُقلق يُقتل حتى في بريطانيا. وحين كانت اميركا منشغلة بالصحوات العراقية اختارت موسكو التذكير بقدرتها على تأديب جيرانها. اجتاز جيشها الحدود الدولية ولقّن جورجيا درساً يصعب ان تنساه. ومن وقت الى آخر يغلق القيصر حنفية الغاز ليذكّر اوروبا بقسوة فصل الشتاء. هذا من دون ان ننسى الشيشان وانغوشيا.

قبل ربع قرن كان يكفي ان يلتقي سيد البيت الابيض بقيصر الكرملين لينتظر العالم توجيهات الجبّارين. تغيرت اللعبة وتسلل لاعبون الى المسرح. لم تعد الصين عملاقا سكانيا يجرجر اقتصاده المريض. الهند تغيرت ايضا. تضاعف عدد المتمردين. كيم جونغ ايل يتلذذ بممارسة الابتزاز النووي. احمدي نجاد لا يرضى بأقل من وسادة نووية. اسامة بن لادن لا عنوان له للتخلص منه ولا مجال للتفاهم معه. الدول الفاشلة تتناسل ومعها مواسم الانتحاريين وجماهير الغاضبين المحبطين ومصانع المهاجرين والقراصنة.

يحتاج العالم الى اميركا اخرى. الى قيادة مختلفة. الى شراكات جديدة. مقاربات عادلة وخلاّقة. يطلق باراك اوباما بعض الرسائل في هذا الاتجاه. لا تكفي جاذبية الخطيب ولا مخمل الخطب. سيكون خطيرا ان يتحول اوباما مجرد حالم خائب كميخائيل غورباتشوف الذي سيلتقيه. ثم هل لكبار اللاعبين مصلحة فعلية في نجاح القوة العظمى الوحيدة في مداواة جروحها وترميم هيبتها؟ على اوباما ان يتذكر ان ميدفيديف هو رئيس للجمهورية في عهد المرشد فلاديمير بوتين. وقد اصاب الرئيس الزائر حين اتهم الكولونيل السابق بأنه لم يطلق تماما قاموس الحرب الباردة. إن سيد الكرملين يعيش تحت رقابة الكولونيل.

*نقلا عن جريدة "الحياة" اللندنية

جميع الحقوق محفوظة لقناة العربية © 2009